صفحة من حياة شاعر

# عاشق ومجنون!...

الأستاذ صلاح الدين المنجد

كان اسمه جيرار دى نرفال ، وكان مولده فى باريس حيث الغيوم البواكى وحيث الجو المكفهر. أما أبوه فكان طبيباً فى الجيش، وأما أمه فكانت بنت بائع فقير . فنشأ فى قرية أودعه فيها أبوه ، بعد أن قضت أمه ، وأرسل إلى القتال . فنبت بين الحقول الواسعة، والسهول المتوثبة نحو الأفق البعيد . وطابت له الحياة فى هذه القرية التى لا تُسمع فيها الأصوات النابية تتعالى على جنبات السين ، ولا يُرى فيها قوران الناس بين الأحياء والشوارع ، وإنما تسمع فيها أصوات العجائز الخائفة ، وهن يتحدثن عن طرائف السحرة والجان ، ويرى فيها أسراب النعم تقودها الفتيات والرعيان . وأحب الحياة فى القرية ، فآثر ذلك فى حياته . ثم خلّف القرية إلى باريس ليشدو فيها العلم . وما كاد يبلغ الثانية والعشرين حتى أخرج للناس طائفة من أشعاره . ثم قرأ « غوته » فكلف بكتبه ، وعزم على نقل « فوست » إلى الفرنسية . وسرعان ما نفذ ما عزم عليه ، فجاءت آية رائعة أعجب الناس بها كثيراً . فقدروا صاحبها ورمقوه . ودفعه هذا الظفر الذى سعى إليه منذ سلك طريق الأدب إلى انتخاب قطع من شعر « رونسار » وأخرى من أشعار « غوته » و« شيلر » ليقدمها إلى الناس . ثم انكب على الشعر يقرأه وينظمه ووجد أن حياة الأديب ، وما فيها من كسل وما فيها من أحلام ، قد صادفت من نفسه هوى، فهو لا يصلح بعد اليوم إلا لها. فقد كان له مزاج الأديب وإحساس الشاعر . وكان كما يقولون عنه دقيق الفكر رهيف الحس واسع الخيال ، يسكن إلى الأحلام ، ويقضى ساعات من نهاره وساعات يفتش عن حلم يرضى عنه . ويظهر لنا من أشعاره أنه كان يجد فى الأوهام راحة لنفسه . . . فهو لا ينفك يتوهم ويتوهم . فهو يصف لنا ، كيف يستشف أشباح الجان من وراء الغيوم ... فيصيخ بسمعه إلى عزيفهم المبهم تارة والخفيف طوراً ... يرسلونه مع زفيف الريح الثائرة . ويراهم مختبئين بين طيات السحاب ... قيناديهم ، فيأتون سراعاً يحيطون به ... يكلمونه قليلاً ويحدثهم قليلاً . ثم إنه ليتمثل نفسه طائراً ... يقفوه نفر من الجن ، يسرح معهم فى الفضاء حتى يصل إلى السماء ، فينظر إلى الأرض الخاضعة تحت قدميه ، أو يتمثل نفسه حيناً آخر هابطاً إلى سيف البحار ليستجم قليلاً ، ثم ليهبط إلى قرارة البحار فيرى الحيتان والأسماك ، ويزور أميرات الجن فى قصورهن المتلألئة فى قاع البحار

وكان لا بد له وهو فى مثل هذا الحس الرهيف والخيال العميق والسن الباكرة أن يحب ويعشق . ولقد أحب ، ولكن حبه كان لوناً من الحب لم يكن للناس به عهد من قبل . فإن فيه كثيراً من الطرافة التى تعجب ، والفكاهة التى تُطرب . فهو لم يعشق فتاة رآها فى الشارع أو الطريق ، ولا لقيها فى الحقل أو عند النبع ، وإنما عشق فتاة رآها فى حُلُم . فلقد مسّ الكرى أجفانه ذات ليلة مساً رقيقاً أنساه نفسه ودنياه : « هاأنذا فى قصر « مورتو فونتين » أرتع بين رياضه ، والقمر الساجى يرسل أشعته فتهوى فاترة كليلة ... تضىء القصر ذا الجبهة الحمراء ثم تختفى بين أزهار الزيزفون . وفجأة تبدو فتيات حسان ... يرقصن على النغم ، ويغنين الأغاريد؛ وكنت وحيداً فحدقت فيهن ورأيت فتاة شقراء ناعمة الشباب غضة الجمال قد اكتنفتها وأخذن يتمايلن معها . سمعتهن يناديها : تعالى يا أدريان ! فلكت علىّ فؤادى ؛ وأقبلن نحوى فرقصن . ها هى ذى بين ذراعىّ ... أرقص معها . لقد سمعت من يهمس فى أذنى أنّ قبلها ولا تخف فهى لك . فضممتها إلىّ وقبلتها ، ثم جلسنا حولها لتغنى لنا . فغنت بصوتها العذب الحلو أغرودة من أغاريد الأقدمين تفيض بالحزن ، وتفيض بالسحر ، فيها قصة تلك الأميرة التى أودعوها البرج الشاهق .. لأنها أحبّت فتى غرانقاً

« وكانت الفتاة الشقراء تغنى فتنحنى الأشجار ، وتأتى أشعة القمر ترقص حواليها فتحفها بنور يبهر الأبصار ويسحرها . وغفلنا عن الليل ، وحسبنا أننا فى جنة عدن ، فقمت إلى غصن من الغار لأضمه على رأسها ، ولكنها قامت تثنى وتلهو ... ثم اختفت بين الخمائل عن أبصارنا ... وتلاشى صوتها ... ونأى طيفها ، ولكن صورتها ما تزال فى نفسى لا تفارقها بعد أن تغلبت على كل صورة[1] »

(١) من قطعة له اسمها « أدريان »

تلك قصة حبه ، ولقد كان وفياً لهذا الطيف الذي قبله ورآه واعتقد أنه راجع إليه لا محالة ... فسماه « زهرة الليل التي تفتحت تحت أشعة القمر الشاحب » وسماه « الطيف الوردي الأشقر الذي اختفى بين الأعشاب ، والتف بالسحاب »

وفكّر شاعرنا طويلاً في زهرة الليل ، فانكب على السحر وما يمتّ إليه بسبب يدرسه ويقرأ أصوله كأنما أراد أن يسخره لإحضار أدريان . وكان يسمع من الشرق أقاصيص حلوة طربت لها نفسه ورضي عنها هواه ، فتمنى لو زار تلك البلاد التي هبطت إليها الأحلام ، ورتعت بين جنباتها الأوهام ، فيدرك ما فيها من أمور يحيط بها الغموض والخفاء . وخُيّل إليه أن أدريان هي بلقيس صاحبة العرش العظيم ، أتت إلى القصر الأحمر لتهمس في أذنه أسرار الدنيا وتدله على طريق الخلود

ويذكر لنا من كتب عنه أنه كان يعتقد في تقمص الأرواح، وأن نظرته إلى أدريان كانت نتيجة لذلك الرأي . ولقد أصبح هذا الرأي لديه يقيناً عند ما قضى بين دروز سورية ردحاً من الزمن غير قصير . على أننا لا ننكر أن للمخدّرات التي كان يقتل بها جسمه ويفني نفسه أثراً في إخلاده إلى ما أخلد إليه . والعجيب أن يعتقد بأن تلك الأوهام حقائق ، على حين يعتقد الناس أن الحقائق أوهام . وكان من خبره بعد ذلك أنه التقى ذات ليلة براقصة في حانة بباريس فحسبها أدريان الحبيبة . وبُعث الهوى الأول وهاج الشوق القديم ، فقال في نجواه لنفسه : لقد عادت إليّ بعد أن اختفت بين الرياض . ولازم المقهى لا يغادره إلا لحاجة ليملي بصره من جمال هذه الراقصة التي تقمصتها روح أدريان . وكان يغمرها بأزاهيره التي كان يرسلها وعليها اسمه ... ملتمساً بذلك لنفسه وصلاً عندها ، قانعاً بالنظر دون الكلام . ولكنها ازورّت منه بعد أن رأت جنونه وعلقت فتى كان يغني فتزوجت به

وزاد جنون شاعرنا عند ما تخطى الثلاثين ، فقد رأى في إحدى الأماسيّ نجماً يضطرب في السماء ، فضحك له وظن أنه بلقيس تناديه لتذهب به إلى الشرق . فأخذ يقهقه ويغني ويقفز ويبكي ، وينزع أثوابه ويمد يديه نحو النجم المتلألئ منادياً تارة ومغرّداً أخرى حتى مرّ به بعض من عرفه ، فأشفقوا عليه ورثوا لحاله وقادوه إلى الطبيب

وذهب ما ألمّ به بعد ثمانية شهور قضاها في مصح الطبيب « بلانش » فعزم على الرحيل إلى الشرق . فترك باريس سنة ١٨٤٣ وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة قاصداً جزيرة مالطة، ثم رحل عنها إلى الاسكندرية فالقاهرة . فراعه منها آثار مدنيتها القديمة وعزّها الخالي ، وأعجبه زيّ المصريين فتزيّا به ، وحاول أن يتعلم العربية فلم يفلح . ثم ترك مصر قاصداً سورية ومعه جارية سوداء اسمها زينب

وجد شاعرنا في سورية ضالة نفسه . فقد درس ما فيها من ديانات ، فأعجبته منها الدرزية . وزاد يقينه بالتقمص واعتقد أن بلقيس لا بد آتية إليه بعد أن فرت أدريان وأعرضت عنه جون[1] . ألم يجتمع ببلقيس فوق ثبج البحر على سفينة صنعت من الذهب ، ورصعت بالدر ، وحفت بها الجان ، فضمها إلى صدره وروى فيها الظمآن من قبلاته ؟

وعاد عقله إلى الاختلاط فترك بيروت إلى القسطنطينية فأقام بها زمناً، يقول : « بلغت البوسفور ... فالتفتُّ نحو مصر الجميلة فإذا هي وراء الأفق البعيد »

« لقد ذكرت وطني الذي تركته منذ شهور ، عند ما وطئت قدماي هذه الأرض الأوربية التي استولى عليها المسلمون . والتفت حوالىّ ... فإذا أنا أمام حلاق أرمني يقص اللحى ... ويقدم القهوة . ورأيت جمعاً من الكلاب النائمة على الطريق . ولقيت شيخاً وقوراً يحمل عمته الكبيرة مستلقياً على العشب ... نائماً ملء عينيه ، يحلم بالجنة التي وعد الله عباده الصالحين » .

وعاد جيرار إلى باريس فكتب « مشاهد من الحياة الشرقية » أخرجها للناس بعد أربع سنوات . وما زال يتنقل بين السجون لجنونه والبلاد المجاورة ، برماً ببلده ومحيطه ، سائلاً ربه « ألا يبدّل من حوادث الكون شيئاً ، وإنما يبدل ما يحيط به من الأشياء ليعيش وحيداً في عالمه الجديد » مخرجاً للناس « ذكريات ونزهات » و « بنات النار » و « قصور بوهيميا الصغرى » حتى لقي مصرعه الذي كان يمشي نحوه ببطء منذ زمن طويل .

فقد ألحت عليه الأوهام واشتدت في الإلحاح فأذعن لها ،

(١) كان اسم الراقصة التي أحبها : « جون كولون »